فوضى انتماء الهوية النسائية في الرواية العراقية بعد ٢٠٠٣م

The chaos of female identity affiliation in the Iraqi novel after 2003 A.D.

مريم جبل كاظم سعدون النايلي
مدرس مساعد
العراق– جامعة القاسم الخضراء

Maryam Jabal Kazem Saadoun Al-Naili
assistant teacher
Iraq - Al-Qasim Green University

الكلمات المفتاحية: الفوضى، انتماء الهوية النسائية، التحويلات التاريخية
Keywords: Chaos, female identity, historical transformations

الملخص

تتبع أهمية دراسة الهوية من كونها تمثل خطاباً معرفياً شأنه شأن الخطابات الأخرى في الأدب؛ إذ دخلت الهوية الكتابة السردية وأصبحت أحد مضامينها بصورة جلية، فالرواية تعرض للواقع والحياة اليومية ومنها الواقع في الماضي، الذي يمثله التاريخ بامتداده نحو الحاضر أو المستقبل باستيعابه لقضايا الواقع التاريخي ؛ إذ أصبح مفهوم الهوية جزءاً مهماً في الأدب الروائي العربي بصورة عامة والرواية العراقية خاصة، لا سيما النسائية خلال مرحلة الانتقال التي واجهها الواقع العراقي بعد٢٠٠٣م، التي حفلت بسلسلة من الأحداث التاريخية، فأدى ذلك الى تشكيل مظهرٍ كتابي يتناول الأحداث الواقعية الموضوعة بصيرورة روائية نابعة من الماضي والحاضر، بوصفها مناقشة لتغيرات الواقع الفعلية، وناقلة لصورة يمكن القول ليس للتاريخ فيها إمكانية نقل الحقيقة كما هي بل تحمل اختلافاً من خلال تشكل النص واللغة والمفارقة التاريخية في الرواية ؛ إذ كشفت الروايات بعد هذه المدة عن تشكل ظاهرة واضحة المعالم تستدعي التغلغل في أعماق أحداثها وتمنحنا الوصول إلى وحدة متكاملة بوجود التاريخ في الروايات المدروسة باختلافاته الزمانية وتشكلاته وآثاره السياسية والاجتماعية.

Abstract

The importance of studying identity stems from the fact that it represents a cognitive discourse like other discourses in literature. Identity entered narrative writing and became clearly one of its contents. The novel presents reality and daily life, including reality in the past, which is represented by history by extending towards the present or the future by absorbing the issues of historical reality. The concept of identity has become an important part of Arab fictional literature in general and Iraqi novels in particular, especially women's novels, during the transition phase that Iraqi reality faced after 2003 AD, which was filled with a series of historical events. This led to the formation of a written form that deals with realistic events set in a narrative process stemming from the past. and the present, As a discussion of the actual changes in reality, and a conveyor of an image in which it can be said that history does not have the possibility of conveying the truth as it is, but rather carries a difference through the formation of the text, the language, and the historical paradox in the novel; After this period, the novels revealed the formation of a clearly defined phenomenon that calls for penetrating the depths of its events and gives us access to an integrated unity with the presence of history in the studied novels, with its temporal differences, formations, and political and social effects.

المقدمة

الحمدلله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد المصطفى الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين وبعد .

تنبع أهمية دراسة الهوية من كونها تمثل خطاباً معرفياً شأنه شأن الخطابات الأخرى في الأدب؛ إذ دخلت الهوية الكتابة السردية وأصبحت أحد مضامينها بصورة جلية، فالرواية تعرض للواقع والحياة اليومية ومنها الواقع في الماضي، الذي يمثله التاريخ بامتداده نحو الحاضر أو المستقبل باستيعابه لقضايا الواقع التاريخي ؛ إذ أصبح مفهوم الهوية جزءاً مهماً في الأدب الروائي العربي بصورة عامة والرواية العراقية خاصة، لا سيما النسائية خلال مرحلة الانتقال التي واجهها الواقع العراقي بعد٢٠٠٣م، التي حفلت بسلسلة من الأحداث التاريخية، فأدى ذلك الى تشكيل مظهرٍ كتابي يتناول الأحداث الواقعية الموضوعة بصيرورة روائية نابعة من الماضي والحاضر، بوصفها مناقشة لتغيرات الواقع الفعلية، وناقلة لصورة يمكن القول ليس للتاريخ فيها إمكانية نقل الحقيقة كما هي بل تحمل اختلافاً من خلال تشكل النص واللغة والمفارقة التاريخية في الرواية ؛ إذ كشفت الروايات بعد هذه المدة عن تشكل ظاهرة واضحة المعالم تستدعي التغلغل في أعماق أحداثها وتمنحنا الوصول إلى وحدة متكاملة بوجود التاريخ في الروايات المدروسة باختلافاته الزمانية وتشكلاته وآثاره السياسية والاجتماعية.

وانطلاقاً من ذلك قرّرنا أن نختار عنوان الدراسة الموسوم بـ ((فوضى انتماء الهوية في الرواية النسائية العراقية بعد ٢٠٠٣م))، وقد كان مسوغ الميل انطلاقاً من أن الموضوع جدير أن يكشف عن مدى فسيح في الجانب التاريخي للعراق، تتخلله قضايا عربية مشتركة ترتبط بالتاريخ العربي، لكن واقع العراق التاريخي أخذ الحيز الأكبر، فضلاً عن افتقار الموضوع إلى دراسة مستقلة، فعلى الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت الرواية النسائية في المدة الأخيرة إلا أنها لم تتناول قضية ضياع الهوية بوصفها ظاهرة واضحة المعالم في الروايات، وإن وجدت في بعض الدراسات فقد كانت ضمناً في تلك الدراسة وليست على نحو خاص ومنفرد، أو اقتصارها على روائي معين بشكل ينعدم فيه استيفاء حق الموضوع .

واستناداً لطبيعة الدراسة ومتطلبات المنهج العلمي فقد توزعت الدراسة على ثلاثة مباحث يسبقها مقدمة وتعقبها خاتمة .

اما المبحث الأول فقد خصص لدراسة الهوية وتحبيك التاريخ في الرواية وقد كان الاهتمام منصباً على الهوية العراقية دون الهويات الأخرى، فتناول المبحث التحولات التأريخية واغتراب الهوية في الداخل والخارج مرتكزاً على أبرز التأثيرات للمراحل التاريخية على الذات، فكانت دراسة لهوية الذات مقابل الوطن ومقابل الآخر. أما المبحث الثاني فتناول التحولات

التأريخية وازدواجية الهوية، والمحور الثالث خصُّص لقراءة ثيمتين تمثلتا بالصراع الحضاري بين الشرق والغرب .

واشتملت الدراسة على خاتمة ضمنتُها أبرز النتائج التي توصلتُ إليها، مع قائمة بالمصادر والمراجع التي استعنت بها . وبما أن التاريخانية الجديدة منهجاً تحليلياً نقدياً، فقد اتخذنا منه منهجاً قرائياً في دراسة الهوية وتحليلها في الروايات، وكيفية قراءة ثيمات الحدث التاريخي وتحليل مضامينه ولما كان الموضوع واسع المدى نظرياً واجرائياً، تعاملنا مع نماذج روائية من نتاجات الكاتبة العراقية المتعلقة بمرحلة ما بعد ٢٠٠٣م، ولا ندّعي أن البحث قام بمسح لكل جوانب التطورات التاريخية التي لحقت بالرواية، فقد انطوى الاشتغال على مجموعة انتقائية تبدو أكثر تمييزاً وتوضيحاً للموضوع .

وفي الختام أقدّم الشكر والامتنان، لأعضاء اللجنة المشرفة على البحث فلهم مني فائق التقديروالاحترام.

ومن الله التوفيق

الباحثة

المبحث الأول

التاريخ والهوية الوطنية

تمثل الهوية الوطنية التمسك بالأرض والأصول المكانية والمعالم الحضارية والثقافية للوطن، إلا أن الذات الفردية قد تنسلخ عن هويتها الوطنية عندما تؤدي الظروف إلى عكس ما تصبو إليه تلك الذات .إنَّ معاناة (الغربة) و(الاغتراب) قد جعلت الشخصيات إزاء إختبار . ففي خضم ظروف حياة الغربة وتفاصيل الهموم اليومية، قد يتعرض الفرد– أيّ فرد–إلى فقدان ذاته وشخصيته وذوبانه في الوسط أو البيئة الجديدة التي حلَّ عليها، أو – ربما – يضيع في دروب الغربة، فتتقطع صلته، بمرور الأيام، بجذوره ووطنه، وما كان له فيه من ذكريات وأشياء عزيزة.

ففي رواية (تحت سماء كوبنهاغن) تتجرد الذات عن هويتها الوطنية، إذ ترى الشخصية المحورية (هدى) بأن هويتها التي تعرّفت إليها دون سواها هي الدنمارك، وتبدد لديها الشعور بالهوية الوطنية، إذ هُزت صورته في ذهنها بشكل نهائي، لأنها لم تتعرف إليه يوماً، وصارت هويتها المزدوجة مابين الأصل والبلد الآخر عامل إلغاء الهوية الوطنية : **((كانت بالنسبة إليَّ أرضي وبلدي دون أن يكون في قلبي ذرة شك في هذا))** [١].

تكشف شخصية (هدى) عن معاناة المغتربين في الدنمارك من شعور بالضياع والانعزال، فهي لم تتعرف إليه يوماً، فقد هاجر بها والديها وهي صغيرة، وكذلك وطنها لم يتعرف إليها، عندما جعلت من الوطن طارداً للذات سالباً لهويتها، ويتجسد هذا عندما تتحدث (هدى) عن معاناة والديها من ملاحقة حزب البعث لوالدها في السبعينات :**((ذلك البلد الشبح الذي أخافهما حد الهرب منه))** [٢].

فكان فقد الإحساس بالوطن، ليس حضناً دافئاً وإنما انتماء أيضاً تقول : **((أنا التي عشت جل حياتي أشتهي وطناً دافئاً، وابتغي عمراً جديداً أعيش فيه ذلك الوطن (...) ما هذه الأوطان التي تلفظ ؟ تلقي بك على قارعة غربة ضيقة، بينما ترفل هي في مساحات شاسعة من وطنيتها ؟ ذاك الوطن المغبر بالحروب لا يعرفني، ولا أنا عرفته (...) كي أعيش بسلام كان لزاماً عليَّ ان أجتث بلدي من قلبي . وعشت جزءً من مراهقتي سعيدة بقرار اجتثاث المشاعر هذا ... ولم يتطلب هذا القرار شجاعة ...))** [٣].

---

(١) رواية تحت سماء كوبنهاغن : ١١٠ .

(٢) المصدر نفسه: ٣٨ .

(٣) المصدر نفسه: ٩٨ – ٩٩ .

إن طبيعة الغربة التي عاشتها (هدى) أثرت بهويتها الأصل وحولتها لشخصية متعصبة حادة اتجاه بلدها، وخلقت نزعة عنيدة لديها في محاولة لإلغاء الانتماء إليه :((**ركلت أرضية الأوطان الصلبة من تحتي وعرّيت أساسي ...**)) [١].

وهذا النص يمثل الانفصال عن الوطن وعدم الاعتزاز به، و يشكل مظهراً في الرواية يحمل دلالة القلق الوجودي، والبحث عن الهوية، والشعور بالوحدة، ما دامت الذات قد كشفت نفسها كأقلية أمام الآخر الأجنبي ولم تعد تعرف ماذا تعني أكثرية بعد أن لفظها قاعها الأصل خارج حدوده، فتركت مصيرها للمنفى باعتباره المكان الوحيد الذي تتحرك من خلاله الشخصية لتعثر على هويتها حين تُصبح الدنمارك هي الوطن .

ويظهر المفهوم نفسه في رواية (حديقة حياة) حيث تتمزق الهوية الوطنية عندما يتخلى أفراده عن هويتهم الأصلية مقابل الحصول على جنسية بلد أخر وهذا كان حال (توماس) فبعد حصوله على الجنسية الأخرى أخذ يقنع والدته بالحصول عليها أيضاً : ((**أمي ... سافري إلى الأردن ... سأهيئ لك كل شيء ... عندما تصلين إلى هنا ... ستحصلين على (الكرين كارت) وبعدها سيمنحونك الجنسية ...**)) [٢]، تظهر شخصية (توماس) عدم التمسك بهويتها والانجراف وراء موجة التغريب التي استساغتها معظم الشخصيات، إلا أن (أم توماس) شعرت باعتزازها بهويتها وبلدها وآثرت البقاء فيه على الحصول على أية جنسية أخرى :((**اسمع توماس.. أنت وزوجتك ريتا.. أني ما أريد جنسية.. عندي جنسية ..**))[٣].

وتتجسد الهوية الوطنية بالمعنى نفسه عندما تتخلى (بوران) و(سوزان) اللتان تحملان الهوية المزدوجة من أب عراقي وأم ايرلندية عن هويتها العراقية لتحصل على أوراق تمنحها الجنسية اللبنانية وتقنع (سوزان) بالسفر إلى عمان للحصول عليها أيضاً، فالأمر أصبح سهلاً ولم يظهر فيه أي نوع من الحزن على الوطن بل على خلاف ذلك، أصبح موضع راحة وتباهي وسادت فكرة تغريب الهوية، فهذه (سوزان) تبارك لأختها حصولها على الجنسية الأخرى : ((**مبارك حصولك على الجنسية اللبنانية ...**)) [٤].

وعبرّت الكاتبة في رواية (الأجنبية) بالانفصال عن الوطن والتنكّر له تارة، والانتماء له تارةً أخرى، وفي كلتا الحالتين انتج هذا عن معاناة الشخصية من تبعات ذلك الانفصال والانتماء، وفي ظل تبلور ثنائية الأنا والآخر تواصل (عالية) البحث عن الانتماء لوطن

---

(١) رواية تحت سماء كوبنهاغن: ٩٩ .

(٢) رواية حديقة حياة : ٧٧ .

(٣) المصدر نفسه : ٧٧.

(٤) المصدر نفسه: ٨٠ .

تتعرف إليه وعلى نفسها أيضاً، لكن وعيها الذاتي يدرك أن ذلك لن يتحقق مادام الوطن لا يعدو أن يكون افتراضياً، فيتمزق شعورها بهويتها الوطنية، وهي تطرح سؤالاً تود التفاعل فيه مع المتلقي واشتراكه في الإجابة تقول :((**هل يصح أن نسأل : والآن ما العمل بالوطن ؟ بذاك الكافر والمؤمن، ومابين بين، كما جرى ويجري فكل شيء تم التلاعب به . الأوطان، اللغات، الجينات، العقائد، المرجعيات (...) الوطن افتراضي وليس مؤقتاً أيضاً**)) [١].

أصبحت الشخصية تشعر بفعل تلك العوامل (اللغة، العقيدة، الجينات، ...) بالعطالة والسلبية اللذين يطبعان الوطن بطابع يشعرها انه سببٌ بما تعانيه [٢]. في موضع آخر من الرواية تعلن انفصالها عنه، إذ ترصد الكاتبة استقرار الشخصية المتزعزع وهويتها المفكّكة التي تسعى إلى تحقيقها وترسيخها بانسحابها من وطن انتظرته طويلاً، لكنه لم ينسبها إليه :((**لا أريد الانتساب إليه ولا الانتماء ولا الوفاء ولا الغناء من أجله . لا أريد أن أقطع من نفسي وأعطيه نفساً من أنفاسي ولا مليمترا من دمي السائل العبق . لا أريد أن انتظره بعد اليوم لكي أبدأ معه حياة عريضة أو ضيقّة . أريد أن أكشط وأبتر عضواً بعد عضو لكي لا يبقى في ما يسترجعه ذلك البلد مني، ففتحت له شبابيك العالم والمدن، القارات والولايات لكي يتطاير ويتفتت، ويتشظّى ويختفي (...) لم أعد أفهم شيء منه وما يجري فيه ...**)) [٣].

تختلط في ذهن الشخصية مع مسألة الانتماء للوطن مفاهيم (الأمومة، الطفولة، الأبوّة) وذكريات الجدة الحنون والعمة المتسلطة، الماضي والحاضر، كل ذلك تريد التخلّص من آثاره، لأنه يخلق في نفسيتها اضطراباً، لاسيما مرحلة الطفولة التي لم تعشها كما يجب، فالشخصية تناقش ذلك بعد عشرين عاماً من غربتها، واضعة مسألة الانتماء للوطن من ضمن ذلك، وهو لا يعدو أن يكون مجرد ذكريات وأشياء انتهت، من هذا يتضح للمتلقي مقصدية الكاتبة في اعتمادها أسلوب التداعي الذي يؤسس فاعلية مابين الوعي بالماضي والحاضر من خلال السرد، بتجسيد مفاهيم (الطفولة، الأمومة، الأبوّة) وكيفية تكوين فكرة عن الوطن، فالنص تعمل فيه مستويات مختلفة تسهم في إعطائه دلالة النزعة النفسانية الواضحة في الرواية، فمستوى إدراك النص يشتغل في ضوء تداعيات الشخصية ذات النزعة النفسانية عن تاريخها وتاريخ وطنها مما يعطي مساحة للتأويل وهذا ما يجّسده قول (بول ريكور) بأن الفهم يحدث عند المتلقي نتيجة للتأويل، فمستوى الفهم الذي يصل إليه المتلقي عند (ريكور) هو ((عملية تعكس الجانب الحواري الذي يهدف إيصال ما يريدهُ وتحقيق التعرف على مقصد

(١) رواية الأجنبية : ٨٩ .

(٢) ينظر: وعي الذات : ١٩٩ .

(٣) رواية الأجنبية : ٩١ .

الكاتب من وجهة نظر المستقبلين ...)) [١]، وفي رواية (هروب الموناليزا) تبدأ الشخصية مرحلة انتقالية للتكيف مع مسببات اغترابها، وذلك عندما تعي الحالة التي وصلت إليها من تشظي مصيرها، فقد قررت محو التفكير بالوطن ورأت في ذلك الحل الذي يسهم في تمتعها بالحرية بوصفها في البلد الأخر ويدفع بأسباب اغترابها إلى جهة أخرى للنظر للموضوع على أنه وضع طبيعي يسمح لها بالعيش باعتبارها مواطنة متحضرة في بلد تنظر إليه وكأنه بلدها وليست مغتربة فيه :((**لكي أقوى على الاستمرار والعيش في هذه البلاد، كان لابد من استبعاد الحس بالوطن والتفكير ...**)) [٢].

إن حالة الغربة التي عاشتها (سومر) غيرّت نظرتها لطريقة العيش والوجود والبشر مادام هناك عالم تعيش فيه فلابد أن تصبح أكثر تقبلاً له، فالبشر والأرض كلها على حد سواء يتمتعون بالوحدة وهم أقل كراهية لبعضهم .

استدعت (سومر) هذا النوع من التفكير، لأنها أرادت استبعاد فكرة التفرقة بينها وبين الآخر، عندما أرادت الاختلاط به والارتباط بعالمه واستبعاد الشعور بالوطن، على الرغم من هذا كان ذلك العالم أكثر عنصرية من أن يتقبلها، ومع تنازلها عن الشعور بوطنيتها، والتجّرد عن ذلك الإحساس والانتماء إلى الآخر / الغربي، بقي المعيار الطبقي مابين مجتمعين هو المحك الذي يحكم العلاقات الإنسانية تقول :((**أحاول أن أقنع نفسي بوحدانية الأرض التي هي لنا جميعاً نحن البشر (...) كنت أحاول أن أمزح قليلاً وأنسى الحزن والبكاء، ولو لسويعات، فتصدفني اللغة، ويصدفني بعض العنصريين ...**)) [٣].

وقد عالج (إيريك فروم) هذه القضية من خلال تغلّب الفرد على اغترابه وذلك بأن ((يواجه الإنسان حقيقته ويعترف بوحدته الجوهرية وعزلته في كون لا يبالي بمصيره، وأن يدرك بأنه لا توجد أية قوة أعلى منه يمكن أن تحل مشكلته ...)) [٤]. وهذا ما سعت إليه (سومر) في التغلب على اغترابها .

وفي رواية (الحفيدة الأمريكية) تقدّم (إنعام كجه جي) ضياع الهوية الوطنية مابين قسوة الماضي وواقعية الحاضر الممثلين بزمن الحرب، وقد أسهم ذلك في خلق شخصية ناقدة

---

(١) نظرية التأويل – الخطاب وفائض المعنى ، بول ريكور ، ترجمة : سعيد الغانمي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط٢ ، ٢٠٠٦م : ٥٣ .

(٢) رواية هروب الموناليزا : ٤٧.

(٣) المصدر نفسه : ٤٦ – ٤٧ .

(٤) الإنسان المغترب عند إيريك فروم ، حسن حماد ، مكتبة دار الكلمة ، القاهرة ، د . ط ، ٢٠٠٥م : ١٥٩ .

للشعور بوطنيتها، لأن الوطن لم يقدّم لها أي حق من حقوقها وإنما منح (زينة) الكوارث، وأصبح يمثل تاريخاً للذاكرة بما فيه من حروب طويلة وعنف، ونتيجة هذا حملت نفس (زينة) صورة مفككة، وجعلت علاقتها بالوطن علاقة انتهازية تحقّق أهدافها من خلاله وعلى حسابه :

((لم يردّني حليبي إلى بغداد

سلختني منها الكارثة وأعادتني إليها الكارثة .

فمن له الحق في حسابي ؟)) (١).

تصف (زينة) انعتاقها عن أية مشاعر وطنية، وذلك من خلال حوار تظهر فيه (زينة) نوعاً من الاستعلاء والذي دار بينها وبين البطلة المؤلفة الوهمية، التي أدت دوراً في النص وذلك بتماهي دور البطلة مع دور المؤلفة، لافتة النظر إلى تجربة تحقق الهوية أو عدمها بالنسبة للذات : **((إرثي لوطنيتها التي ولىّ زمنها وتحجرت بل تمومأت قبل أن تتحول إلى هلام عفن مثل طرشي يعوم في خل فاسد ؟))** (٢)، أصبح الوطن في نظر (زينة) ومن فيه مثالاً لصورة بدوية تقيّده الأعراف والتقاليد، وتجّسد ذلك برأيها في جدتها، التي تحث (حيدر) أخا (زينة) في الرضاعة أن يُعيد شيء فيها من الصواب والأصول العراقية المعروفة:

((تطالبه العجوز بأن يعيدني إلى صوابي العراقي لا صوابي الأمريكي . إلى العيب والاحترام والعفة والحشمة والأصول (...) زرع من الوطنية البدوية العمياء ...)) (٣).

تختزن ذاكرة (زينة) بإرث كامل عن الوطن، والذي يضم مجموعة من التصورات التي ارتبطت بغربتها مع أسرتها في أمريكا ومن حوار لها مع والدتها : **((كيف تكون البلاد عزيزة وقد جارت عليك يا أبي، وكسّرت أسنانك وأرعبتك وتجسست عليك ودّبجت كلابها فيك التقارير؟))** (٤).

يلتصق العنوان (الحفيدة الأمريكية) بوحدة النص الروائي، ببحثه في مسألة الهوية، ويبرز تفككها، إذ تكشف عن ملامح الفوضى التي تعتري الذات في حركة لا استقرار لها .

تمثل حالة التطرف والانشطار التي يعيشها (نوروز) في رواية (نصف جسد) ضياعاً لتمسك الفرد بهويته الوطنية، فـ (نوروز) وأسرته الذين أرغموا على مغادرة الوطن، أنعدم لديه الاعتزاز بتلك الهوية بعد أن حولته إلى نصف جسد وتركته مشرداً، وها هو يخاطب بغداد مدينته :

---

(١) رواية الحفيدة الأمريكية : ١٣٢ .

(٢) المصدر نفسه: ٣٦ .

(٣) المصدر نفسه: ١٣١ .

(٤) المصدر نفسه: ١٣٢.

((أنت التي نبذتني إلى العراء وسرقت شهادة ميلادي وهدمت بيتي وشرّدت أهلي وعشيرتي ... ولم تكتفِ بذلك، بل وأدتني حياً تحت التراب (...) سأكون مثلك قاسياً حد الثمالة (...) سأواريك التراب حية (...) سأردمك في أعمق هاوية في ذاكرتي، لن أضع أشارة على قبرك كي أستدل عليه مهما طال الزمن ... لن أزوره ...)) [١].

يرى (نوروز) الهاوي الجسد، أن وطنه وبغداد أصبح كمقبرة حاملة لكل الصراعات والتناقضات، يوحي بالاختناق والقسوة : **((يا مقبرة تلتهم كل التناقضات حتى تتفجر براكين قسوة في وجه أبنائها ...))** [٢].

إن النهاية التي انتهت بها حياة (نوروز) برقاده فوق سرير بنصف جسد جعل مفهوم الوطن يتغير لديه بعد أن أنكره الوطن ونبذه في العراء، واختزل أحلامه وشتّت أسرته، فلم تعد (بغداد) مدينته، ولم يعد الوطن يمنح الأمان بعد نهايته المأساوية التي حددّت انتمائه .

وفي رواية (طشّاري) يصبح الوطن في مخيّلة (اسكندر) مكاناً لجذب القتلة والعنف فيقرر تجسيده بمقبرة افتراضية، يلجأ إليها المغتربون العراقيون في فرنسا، لتأمين مواضع لهم ولأبنائهم، لتجميع قتلاهم بعد أن تشتتوا في مختلف منافي العالم واستصعب جمعهم وهم أحياء، فوطنهم الذي يستجمعهم هي المقبرة التي حلّت عوضاً عن الوطن الأصل : **((يجمع شمل الرجال والنساء الذين وضعوا الرؤوس على مخدة واحدة لعقود من الزمان ثم تفرقوا، وهم أموات، في التراب الغريبة، طواهم طير البيداد الذي حلق فوق العراق ورماهم ...))**[٣].

فقد ذهب أبناؤه إلى غير رجعة ومنهم الدكتورة (وردية) :**((مضيتُ بدون رجعة وكان الوطن عاقاً))** [٤].

وتصف الساردة الوطن بأنه كالسرداب المهجور بعدما هرب منه أبناؤه ومنهم (ياسمين) التي هربت إلى الأمارات **((هكذا هو أطلس الويلات. وقد وجدتها ياسمين فرصه لتهرب من بيت صار كالسرداب المهجور. صمت وعتمه وحسرات وانتظار لغدٍ أسوأ))** [٥].

---

(١) رواية نصف جسد : ٧٣ .

(٢) المصدر نفسه :٧٣ .

(٣) رواية طشاري : ١٩١ .

(٤) المصدر نفسه: ١٨٩ .

(٥) المصدر نفسه: ١٩ .

وتقول الدكتورة (وردية) : ((**لم يعد لي، في ذلك البلد، ما يُبقيني ولا من يُمسكني ...**)) [١].

أما شخصية (سلام) في الرواية فتهاجر إلى (كندا) بحثاً عن وطن هادئ يوفر الأمان بعد أن صار العراق ساحة للحروب، ويأخذ معه زوجته وأطفاله متخلياً عن هويته الأصل في سبيل تحقيق الأمان لعائلته : ((**ذهب زوجها سلام إلى القنصلية الكندية وسأل وعاد بالخبر الملغوم، تعرض سافر على القفز نحو المجهول (...) حصل سلام على عقد عمل مؤقت في لبنان . وقبل سفره ملأ استمارات الهجرة إلى كندا ...**)) [٢].

تنتهي رواية (طشاري) دون أن تفلح أياً من شخصياتها، سواء الرئيسية أو الثانوية، في إيجاد حل حاسم يكفل لها الخلاص من دوامة الاغتراب التي تعصف بها، بل تظل كل منها تدور مع دورانها .

وهناك صورة أخرى تمثل الاندماج والتمازج مع الآخر/ الغربي، والتخلي عن الهوية الوطنية، ممثلة بـ (يزن) في رواية (الحفيدة الأمريكية) الذي يغيّر اسمه إلى (جايزن) بعد وصول عائلته إلى أمريكا واستقرارهم فيها، إنه ما لبث أن غيرّ حياته واتخذ من حي آخر فتوغل في معاناة الاغتراب، وهذه (زينة) تتحدث عن أخيها : ((**أخي يزن الذي صار اسمه جايزن**)) [٣].

يتضح أنّ (يزن) يجد في اتخاذ الاسم الآخر توافقاً وإثباتاً معه أكثر هذا من جهة، وتجرّداً من هويته العراقية من جهة أخرى، والذي حمله إلى التخلي عن عاداته وتقاليده والانجراف وراء العيش .

إن تأزم الأوضاع بمختلف أسبابها وأشكالها أحدثت نقلة في مدى ارتباط الشخصيات وتمسكها بهويتها، مما خلق نفوراً واضحاً تجاه هويتهم، في مقابل استلهام قيم الآخر/ الغربي وطباعه وسلوكه، واسمه أيضاً، وقد تعرّضت الأعمال الروائية لصورة تفكك الهوية، حيث احتلت في بعض منها حيزاً رئيساً، ومنها ما كانت بصورة موجزة، لكنها لم تفقد ذلك المؤشر الوطني، وقد اختلفت رؤية النصوص لتلك الشخصيات وأفعالها وتطلعاتها الحياتية بحسب رؤية الكاتبة ومحاولتها الانطلاق من تلك المسألة ذات التأثير في العملية السردية، والتي ارتبطت بالجانب السياسي والاجتماعي، فأصبح التأثر بالآخر والانحياز لهويته ذا تأثيرٍ واضحٍ ومؤثرٍ في محاولة اللجوء إلى ما يحقق استقرار الذات .

---

(١) رواية طشاري: ٢٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٨٤ .

(٣) رواية الحفيدة الأمريكية : ١٧ .

المبحث الثاني

التحولات التاريخية وازدواجية الهوية

نعني بالهوية المزدوجة أن يحمل شخص ما هويتين، فأحياناً يكون مقيماً في بلد يكتسب هويته، دون أن يفقد انتماءه لهويته الأصل، وأحياناً يتخلى عن تلك الهوية التي تمثله، والثانية هي الهوية التي تمثل البلد الأم له، وتنشأ هذه الهوية نتيجة لعدة صلات منها ارتباط الفرد بالبلد الذي يمثل الأب أو الأم، كأن يكون أحدهما عراقي والآخر أجنبي، أو بسبب الهجرة .

في رواية (الأجنبية) تعيش الشخصية ازدواجية الهوية مابين جواز سفر فرنسي وآخر عراقي، فبعد ضياع أوراقها الثبوتية لجنسيتها العراقية في بلدها تضيع هويتها في بلد يُغيَّب تاريخ أبنائه، فتمضي الشخصية تائهة مابين الانتماء الأصل والبلد المقيمة فيه : **((كل ملف يحتاج إلى تحضير طويل، هنا تعلّمت الحسنة الثانية من وجودي كأجنبية، هو الاستنساخ، كان عليّ تصوير كل ورقة مهما كانت ضئيلة الأهمية في نظري، فربما ستظهر ضرورتها المزدوجة في يوم ما، ولا ندري متى وكيف ربما في حالات الضياع..))** [١].

وتعّمم الكاتبة الهوية الشرقية العربية في الرواية والتي تسهم في تحبيك الأصل التاريخي الذي يحكم الهويات، وعلى الرغم من امتلاكها للهوية العراقية، فهي في ذلك البلد تعّمم هويتها بأنها العربية، أو المشرقية، أو الأسيوية ما يجعلها تحمل ازدواجية الهوية من خلال تعدد التفريعـات للـذات الفرديـة، وهذا كثير ما يفضل الروائيون الكتابة به، بتعميم الهوية تقول : **((نحن العرب عنصريون نستخدم الأدوات نفسها حتى لو كانت في غير محلها ...))** [٢].

وفي نص أخر تقول :**((أنا المشرقية الآتية من كذا وكيف ...))** [٣].

فضلاً عن ازدواجية هويتها مابين البلد المغتربة فيه (فرنسا) ومابين بلدها الأصل، فشخصية (عالية) في الروايـة تحمل الهوية المزدوجة من أب عراقي وأم سورية وكما تقول : **((أنا (...) العراقية السورية الآتية من بين بين...))** [٤].

---

(١) رواية الأجنبية : ٥٥ .

(٢) رواية الحفيدة الامريكية : ٥٧ .

(٣) رواية الاجنبية : ١٥٨ .

(٤) المصدر نفسه:٧٠.

إنّ الازدواجية التي عاشتها الشخصية في الغربة لم تشمل الأوراق من جنسية وجواز سفر فقط، بل تعدّت ذلك لتكون ازدواجية في اللغة :((**هذه هي شبكة من خرائط الطريق وسيولات التقلّب والتحول وازدواجية اللسان مابين المغادرة من لغتك إلى المواظبة على تغيير مجرى لغتك بالدرجة الأولى ...**)) (١).

تبث الكاتبة من خلال الذات / الأنثى جدلية الداخل الذي غادرته متمثلاً بالوطن الأصل، والخارج متمثلاً بـ (باريس) المنفى الاختياري الذي هربت إليه الشخصية من واقعها، ومن زوج تريد التحرر منه، لكنه ظل باستمرار يلاحقها بطلبها لبيت الطاعة، فالرواية تعالج قضية الذات الأنثى مع الرجل وقضية الوطن، عندما أصبحت قضية المرأة كقضية الوطن، فمازالت المرأة تعاني، ومازال الوطن قيد تحرره وقيد ضمان هوية أبنائه :((**كنتُ أبدو محظية معتبرة تصدعت تماماً وتجسّدت هزيمة يفاعتها في بغداد وتضاعفت بهجة شيخوختها في باريس**)) (٢).

وتتشكل الهوية المزدوجة في رواية (هروب الموناليزا) في شخصية (موناليزا) التي يفرض عليها الواقع السياسي حمل اسمين، الأول مستعار (حسناء أكرم صادق)، والحقيقي (موناليزا) تخلصاً من جور النظام السياسي، فقد كانت منتمية للحزب الشيوعي الذي يحمل أفكاراً قومية معارضة لأفكار السلطة تقول :((**كان الوقوف هذه المرة أمام ضابط تفتيش الجوازات مختلفاً تماماً، فاسمي ليس هو اسمي، وليس خوفاً واحداً، إنما هو خوف معقد ومزدوج . فلو أمسكوني لهفوة ما، سأكون معارضة للنظام، كما أكون مزوّرة أيضاً، سأعدم آلاف المرات وليس مرة واحدة**)) (٣).

إن الواقع السياسي جعل من تزييف الأسماء ضرورة تلجأ إليها الشخصية كأحد الحلول بعدما رفضوا سفرها في المرة الأولى فقد اشتبهوا في اسمها . تروي الشخصية الساردة الحوار الذي دار بينها وبين الضابط :

((**أنتِ ممنوعة من السفر .**

- **كيف ؟ ولماذا ؟**

- (...)

اسمك ليس بالاسم الشائع مثل اسم ليلى أو زهرة ليكون منه الكثير ...)) (٤).

---

(١) رواية الاجنبية: ٧١ .

(٢) المصدر نفسه : ٧٣ .

(٣) رواية هروب الموناليزا : ٢٦٣ .

(٤) المصدر نفسه: ١٤ – ١٥ .

ورغم معرفة (موناليزا) أن (حسناء) هو الاسم المزيف الذي تحمله لكن الخوف جعلها تصدّق أنه اسمها تقول :((**رغم كل هذه الأفكار المرعبة شعرت أنني أنا "حسناء أكرم صادق" ولست موناليزا**)) [١].

لكي تحقّق الشخصية انتماءها لبلد يحتضن طموحها وأفكارها ويمكنها من ممارسة معتقداتها الفكرية ويعزز أهدافها النضالية، وفي ظل واقع اجتماعي يعمل على ترسيخ تلك التوجهّات، قررت هجرة بلدها إلى بلد أخر يحفظ القيم التي تنطلق منها .

والحال نفسه في رواية (سيدات زحل) إذ تمثل أزمة الهوية الازدواجية في عهد النظام الحاكم ما قبل ٢٠٠٣م، واقع حال عاشه الناس، والتي قدّمت لها الرواية بشكل عام ضمن الأحداث التي تعرّض لها الوطن، موجهة أسباب العنف إلى لعبة السياسة ومصالحها فيما يحصل من عملية القتل والتهميش والقمع باسم الهوية، فأصبح الاختباء خلف أسماء وهويات مزوّرة ؛ إذ شاع القتل باسم الهوية والعرق والنسب تقول :((**في بغداد ما عدنا نملك براهين لإثبات من نكون حقيقة، فالأسماء ما عادت تدل على معنى واحد، كل الأنساب عرضة للطعن وكل الأعراق مرصودة لمكائد أعراق وطوائف أسماؤنا وأوراقنا ووثائقنا ومصائرنا تشابكت وتعقدت، أحرقوا بعضها في عام ١٩٩٢م، وزوّروا البعض الأخر ...**)) [٢].

توازي الرواية بين التاريخ الماضي الذي كانت الأسماء والهويات فيه مزدوجة ومزوّرة المتمثل في فترة التسعينيات، وبين الحاضر الذي يوازي أحداث الماضي بعد الاحتلال عام ٢٠٠٣م . تتحدث الرواية عن شخصية عاشت فترة الاحتلال عام ٢٠٠٣م، تحمل جوازاً فيه ازدواجية الاسم الذي يشير مرة إلى أنها (آسيا كنعان)، ومرة أخرى (حياة البابلي) تتساءل الشخصية بقولها الذي يتداخل فيه الواقعي مع الحلمي العجائبي :

((**هي أسيا إذن وأنا حياة البابلي، فمن تكون شبيهتي أسيا ؟؟**

بعد زمن ســـأعرف أن أسيا اسمي المستعار في جواز السفر الذي أهرب به من الموت ...)) [٣].

ترفض (حياة البابلي) أن يُقيدّ الإنسان بفكرة الهوية والانتماء، ورأت أن هويتها كإنسان تكفي لتعرّض عنها وهي كونها امرأة واسمها (حياة)، دون أن يكون هناك قيد أو انتماء ومن خلال الحوار الذي دار بينها وبين الرجل المسن، وظفّت أبعاد التجربة البشرية وتاريخها من خلال الرؤية العجائبية التي تميل إلى عمق فلسفي في طرح النص :

---

(١) رواية هروب الموناليزا: ٢٦٣.

(٢) رواية سيدات زحل : ٢٧ – ٢٨ .

(٣) المصدر نفسه: ٢٠١ .

((مرحباً أيتها السِيدة ... من أنت ومن أين أتيت ؟

- **أنا حياة البابلي من بغداد ...**
- **لعلني سمعت بهذا الاسم ... رجل ما ولا أدري، حسناً هات هويتك وما يعرف بك .**
- **لا هوية لدي، هويتي امرأة، واسمي حياة ...**
- **يبدو أن البشرية بدأت تفيق من عصابها المزمن ... وغير هذا من أنت ؟**
- **كأن له ذاكرة وحلم ...))** (١).

إنّ الازدواجية أحد أبرز الملامح التي قد تعاني منها الهوية، بسبب التحولات التاريخية التي يعيشها البلد، التي تخضع لمتغيرات وأحداث وأنساق مختلفة، والهوية متقلبة بتقلب الزمن وبما يحمله التاريخ بين طيّاته في كل مرحلة من مراحله وهذا ما تمليه الرواية في أحد النصوص الذي تقر بها الشخصية بأن الهوية تمثّل لحظة عابرة وتتبدل تبعاً لمتغيرات التاريخ وعوامل الزمن، فالتاريخ مدعاة لعملية تقلب وتغيّر هوياتي في مدة ما تختلف وتتبدل حسب النسق الذي يتحدد من خلال ممارسة الأفراد وأفعالهم، فالرجوع إلى ذلك الماضي له جذر تاريخي بعيد يرتبط بتقلبّات الهوية وتبدلاّتها التي تحكمها الآيديولوجيا المتمركزة تبعاً للنظام السائد، ففي إحدى الحوارات مابين (حياة البابلي) والرجل المسن مايدل على ذلك تقول:

((الهوية صورة للحظة عابرة في عمر البشرية، تتغير باختلاف الأحداث والأزمنة، قد أكون في اللحظة التالية سومرياً أو أزتيكياً من المكسيك أو فرعونياً أو من الماوري أو من سلالة بلقيس هل يعنيك ذلك كثيراً ؟؟)) (٢).

والهوية بحسب (بول ريكور) تنشأ بسبب وجود حاجة حيوية تقتضي عدم استقرار الهوية عندما تصبح التاريخ الفعلي بالنسبة للفر د، فالهوية ((غير مستقرة ولا معطاة سلفا وانما هي كون مستمر وخلق دائم لوجودها المرسوم بالتغير والتبدل فليست اذن الهوية وجود بإطلاق خارج عن التاريخ ...)) (٣). وإن رؤية الكاتبة هذه تفّسر أن ((سؤال الهوية يجب طرحه والإجابة عليه من داخل النسق نفسه وليس عبر مراقب خارجي . يجب أن يستخلص النسق

---

(١) رواية سيدات زحل : ٣٣٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٣٣ .

(٣) سياسات الهوية ومفهوم الهجنة من موقع : http://almadapar net/ar News/50038.

قرار بذاته، فيما إذا كان قد تغيّر أثناء المسار التاريخي من خلال تغير البنى إلى درجة أنه لم يعد هو نفسه)) (١).

وفي رواية (حديقة حياة) تحمل شخصية (سوزان) الهوية الهجينة من أب عراقي وأم إيرلندية وكان هم الشخصية يتجسد بالرحيل .

لم يقتصر الأمر على حمل (سوزان) فقط ملامح تلك الهوية المزدوجة، وإنما كان اختيار الاسم المنسوب إلى الإرث الغربي حاملاً لتلك الازدواجية أيضاً : ((اسم اختاره أبوها باعتباره عمل تسوية بينه وبين زوجته الإيرلندية (...) فعل التسوية بين اسم منسوب لإرث الطبيعة وأزاهيرها (...) وبين ترضية الزوجة التي أرادت أن يكون الاسم(سوزان) المنسوب إلى الإرث التوراتي لتستطيع لفظ الاسم دونما لكنة تشوّهه ..)) (٢).

وفي رواية (طشاري) نطالع شخصية (اسكندر) العراقي المولود في فرنسا، الذي لم يتعرف إلى وطنه غير مرة واحدة عندما زار بغداد مع أسرته وهو صغير تقول الساردة : ((**نسي بيوت بغداد الكبيرة ومجمداتّها الملأ بالدجاج والموطا . كبر في باريس وتطورت أحوالهم ...**)) (٣).

بقي (اسكندر) متشبثاً بالهوية الفرنسية التي نشأ في أحضانها ولم يعرف أي نوع من الانتماء لوطنه العراق، فلم يكن يعرف عنه شيئاً، ولم يعاني أي حنين أو قلق اتجاهه، حتى عندما كبر فإن أكثر ما عبرّ عن شعوره، اتجاه الوطن هو ما يتابعه من أخبار من خلف شاشات التلفاز، وهي تنقل الأخبار عن العراق المضطهد بصراع الأيديولوجيات والهويات المختلفة، فـ (اسكندر) يمثل المغترب المندمج في الهوية الأخرى (الفرنسية)، ولم تهمه هويته العراقية أبداً .

تعيش الشخصية صراع الانتماء وتشظي الهوية، الهوية العراقية الأمريكية في رواية (الحفيدة الأمريكية) تمثلها هوية الشخصية البطلة (زينة بهنام)، التي تعيش نصف عمرها في مدينة الموصل في العراق، وبعد ذلك تضطر أسرتها بسبب ملاحقة أجهزة النظام الحاكم لوالدها في عهد (صدام حسين) الهجرة إلى أمريكا . تعود (زينة) إلى العراق حاملة للجنسية الأمريكية في عام ٢٠٠٣م، ومترجمة مع قوات الاحتلال، فتعيش مشتتة مابين هويتين، الأولى لا تظهر أنها تميل إليها وهي الهوية الأصل، والثانية تظهر أنها تمثلها فقط، وهي الهوية

---

(١) مدخل إلى نظرية الأنساق ، بيكلاس لومان ، ترجمة : يوسف فهمي حجازي ، مراجعة وتدقيق : رامز ملا ، منشورات الجمل ، بغداد ، ط١ ، ٢٠١٠م : ٢٤ .

(٢) رواية حديقة حياة : ٨٤ .

(٣) رواية طشاري : ٤٣ .

الأمريكية، وتتجسد هذه الهوية في قول الشخصية الراوية : ((**الحفيدة الأمريكية العائدة إلى بيت العائلة في بغداد ...**)) [١]، عاشت (زينة) ألم الانتمائين، فتظلّ مشتتة خائفة تعاني انشطار الهوية وتشظيها، مابين ولائها لأمريكا، وشعورها بالخنوع والخيانة تجاه العراق، وفي الوقت نفسه كان حبها معادلاً لذلك التشّتت، الذي انقسم مابين رجلين بين الأمريكي (كالفن) الذي كانت تربطها به علاقة في أمريكا قبل أن تلتحق بصفوف الجيش الأمريكي نحو العراق، ومابين (مهيمن) الذي تعرّفت عليه بعد مجيئها وكان يكن الحقد لأمريكا ويحمل على مقاومتها في صفوف جيش المهدي .

عند تتبع الرواية، نجد تمرداً وهروباً من (زينة) اتجاه وطنها مقابل خدمة السيادة الأمريكية، فهي تضحي بنفسها من أجل أمريكا فيقع صدام بين الشخصية والوطن تمثل (زينة) الهوية الثائرة على وطنها بالعناد والمجابهة بتمردها على جرحه وتباهيها بالعمل في صفوف الجيش الأمريكي حيث تقول في إحدى حواراتها تقول :

((لست أجنبية

- **اسمك زينة لكنك أمريكية الجنسية))** [٢].

وتحقق ازدواجية الهوية وضياعها في حوار لـ (زينة) مع إحدى الموقوفين :

((الأخت من وين ؟

- **أمريكية .**
- **لكن لهجتك من بغداد ...))** [٣].

طرحت الرواية من خلال شخصية (زينة) قضية وطنية شائكة تمثل وجع المغتربين، وضياعهم في وطن يفترض أنهم ينتمون إليه وأمام ما عاشه أبناءه من خيبات خلق هذا في نفوسهم مسافة من البعد عنه، وهذا ما يصدق على (زينة) التي اتخذت الترجمة كرسالة توجهها لذلك الوطن الذي اتسعت بينها وبينه المسافة، فلم تعد تشعر به، والترجمة على الرغم من محتواها المادي الذي دفع (زينة) نحوه، إلا أنه يحمل رمز تضحية من أجل أمريكا وأمام وطنها الواقع تحت أنقاض الأيديولوجيات المتصارعة، فلم تر فيه سوى مكاناً للتطرف الديني، والصراع السياسي، وفرارها منه بعد أن أيقنت أن البقاء فيه يضعف الذات أكثر .

تعالج رواية (الحفيدة الأمريكية) قضية الهوية المتشظية، والتي تمثل أزمة فعلية تجّسد محنة الشخصيات المغتربة بفعل محنة الوطن، التي جعلت من بعضهم يحملون القسوة واللامبالاة اتجاهه، متمثلاً ذلك بـ (زينة) التي تمثل كما توضحها الرواية شخصية سلبية،

---

(١) رواية الحفيدة الأمريكية : ٣٤ .

(٢) المصدرنفسه : ١٣٧ .

(٣) المصدر نفسه:١٥٢.

أبرزت الكاتبة إحساسها اتجاه الوطن وأبنائه، لأنها كانت تنخرط في صفوف الجيش الأمريكي، وتداهم البيوت معهم، وتشاركهم أحاديثهم السياسية، ومخططاتهم العسكرية، وتجالس الجنود كما لو كانت رجل .

وعالجت رواية (نساء) موضوع الهوية في مستواه الواقعي التاريخي، التي تحمل ذاكرة تمثل الهوية اليهودية في مقابل الهوية العراقية، من خلال شخصية (جوشوا) التي تحرك عملية بناء السرد في الرواية، وتعمل على إعادة قراءة الهوية التاريخية الحضارية، متمثلة بصورة (جوشوا) الذي يعود للبحث عن ممتلكاته، والتي يعدها مسلوبة تاريخياً :((**جوشوا لم يكن واحداً بل آلافاً من اليهود، صهاينة كانوا أم غير صهاينة، وهو أيضاً آلافاً من المجندين الأمريكيين مرتزقة كانوا أم لا**)) [١]. وإلى جانب هوية الانتماء يمثل (جوشوا) هوية الأمريكي، الذي اقتنع بها ليسيطر على الآخر، (بابل)، بوصفه متخيلاً .

يطرح النص قضية الانتماء كماضي، ترتبط به أشياء الفرد القديمة، الذي ينفتح عليه باستدعائه الحدث التاريخي المتمثل برحيل اليهود من العراق، يمثل (جوشوا) صورة اليهودي الذي يمتلك مهمة جاء من أجلها، مهمة تاريخية تأصل التفكير اليهودي فيما يتعلق بالأرض والهوية، وهذا ما جعله يتحد مع صفوف الجيش الأمريكي في احتلال العراق عام ٢٠٠٣م، أتصف (جوشوا) بالشخصية الحاملة للهوية المزدوجة المدعوة باليهودي العربي، كما يحمل ازدواجية الهوية عندما أصبح مجنداً في صفوف الجيش الأمريكي، إذ أراد استبدال حقده بفعل واقعي أكثر فاعلية في مجابهة الأخر، الذي يعمل على نفي الأبّوة القديمة المتعلقة بذلك المجتمع، واستبدالها بأخرى .

وتظهر الشخصيات الحاملة للهوية اليهودية المرتبطة بهويتها القديمة في العراق في نصوص أخرى من الرواية، ومنها شخصية (وايزمان) الذي يحث أخاه وأباه في الوقت نفسه الذي أنجبت منه والدته وهو (إيزاك) على عدم تخلّيه عن حلم بني صهيون، الذين يريدون امتلاك الأرض تاريخياً :((**لا تخسر قدرنا المشترك، أن نكون من أبناء صهيون المخلصين، وعليك ان تشاركنا الانتقام التاريخي، كما ينبغي أن تقر بحقيقة أننا لم نكن مواطنين في بابل السعيدة، كنا العبيد الذين بنوها وآن الأوان أن يقدم البابليون بدفع الثمن**)) [٢].

يظهر النص الذكريات التي حملها اليهود معهم، الذين ينظرون إلى مكان العودة بتطهيره من أي فرد خارج عن كونه يهودي، الذين يجدون بأنهم خلاف ما كانوا يعتقدون بأنهم مواطنون بابل السعداء، الذين يبحثون عن استعادة أرض بابل، كدولة يهودية خالصة .

---

(١) رواية نساء : ٢٨١ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٢٣ .

يمثل النص بعودة (جوشوا) إلى (بابل) عودة إلى الهوية والأرض التي كانت تمثله، إذ يرى فيها تمثيلاً لكيانه اليهودي المرتبط بالمكان، تحاول (إلهام عبد الكريم) أن تناقش حالة التهجير والتغريب القسري للهوية اليهودية من العراق، وتحوّل شعور الانتماء إلى شعور يوحي بالحقد، لنفي تلك الهوية عن أرضها وتاريخها الذي ترك أثراً بالغاً في تكوين الشخصية، و الذي يدفع نحو التعصب .

تعكس شخصية (حميد) في رواية (نصف جسد) الهوية المزدوجة، بعد سياسة التهجير التي اتبعتها السلطة الحاكمة، التي تقوم على التفريق بين الأفراد . عاش (حميد) مابين الهوية العراقية والهوية الإيرانية متشظي الانتماء، فقد هجرته زوجته، بعد استشهاد أخيها المقاتل في الطرف الإيراني، وهجّره وطنه بتهمة التبعية لإيران : ((**كان أخوها أحد ضحايا الحرب في الطرف الإيراني، حمّلته وصغارها وزرها ... طالما دمه يجري في عروقهم وتنكرت لدمها في عروقهم، لقد هُجِّر من وطنه متهماً بالتبعية لإيران وهنا موصوم بالتبعية للعراق وكُنيّت عائلته الصغيرة (حميد عرب) ...**)) [١].

فالرواية تطرح مسألة الهوية من خلال تناولها آثار عملية التهجير والترحيل التي فرضت على عشرات من العائلات العراقية باتجاه إيران، نتيجة السياسية القمعية التي اتبعتها السلطة .

تعرّضت معظم شخصيات الروايات التي سبقت لانشطار الهوية وازدواجيتها، وضغوطات الانتماء، التي أنتجت عنها محن الغربة، والذي أثّر على حياة الشخصيات، منها ما ظلّت ترتجي أن يتحققّ الاستقرار في الوطن وأوضاعه، لتتمكن من العودة، ومنها ظلّت تحمل لازدواجية الهوية، لأنها في الأصل حاملة لنموذجين من الانتماء، اللذين يناقض أحدهما الأخر من أب أو أم أحدهما أجنبي والأخر يمثل الانتماء الأصل، ومنها ما بقيت منشطرة محبطة تعاني من التضاؤل في أي مكان تكون فيه، فهو يشعرها بالضياع والقلق إزاء مستقبل مجهول، وحياة مفتقرة للاستقرار .

(١) رواية نصف جسد : ٥٦ .

المبحث الثالث

الصراع الحضاري بين الشرق والغرب

تتناول الرواية موضوع الصراع الحضاري من خلال العلاقة بين الشرق والغرب، وعملية المثاقفة التي تحصل بوقوف الأصالة مقابل التحّضر أمام ذلك الغرب الذي يُبهر الذات الأخرى بتنظيماته الاجتماعية والفكرية، والرواية توظف ذلك من خلال الشخصيات المنتمية لذلك المجتمع مكانياً، ويرى نبيل سليمان أن الأعمال الروائية التي كتبت عن هذه الثيمة بأنها ((تُثير الأمر من خلال عمل أدبي، يمكن أن يُناقش، لأنه معاش مرتين، مرة كتاريخ نعانيه في بلادنا، ومرة في دائرة ما كتب من أقاصيص هذا الصِدام ورواياته في تجاه رومانسي، أو تجاه واقعي، في دائرة فرد، أو دائرة قرية زراعية وحرفية، لم تجمعها بعد معطيات فلسفية لحضارة)) [١].

في رواية (تحت سماء كوبنهاغن) تبين الرواية من خلال شخصية (هدى) بشيء من السخرية الفارق بين الشرق والغرب، وتدين المجتمع العربي الذي ورث القشرة الخارجية عن الغرب ومجموعة قيم ومعايير عن بُعد و لم يدرك معناها الحقيقي، فتتساءل ماذا تعلّم العرب من الغرب وتحديداً (الدنمارك) سوى المظاهر الخارجية المتمثلة في النص بالإعلانات التي تروّج للوجبات الغذائية، فالنص يكشف عن اهتمام الغربي بكل شيء عن الشرقي، والفارق الذي بينه وبين العربي بوصفه سمة لا تفارقه، بعكس الشرقي العربي الذي يعيش معهم ويرى التمييز الذي ينعتونه به ويرى سلوكياتهم تجاهه ولا يعطي أهمية لذلك، وهذه الصورة تعطي أبعاداً معرفية وفكرية عندما تجعل لقوتهم أسباباً إكتسبوها من فارق التفكير عن الشرقي العربي، وفصله من مسافتها الحضارية بخطوات بعيدة، تقول الشخصية المحورية بنوع من التهكم المؤسف الذي قالت به شيئاً وأرادت شيئاً آخر:

((ماذا يعلم العرب عن الدنمارك سوى أنها تقدم لهم منتـجات الألبان ودعاية زبدة (لورباك)، حيث يتحلّق الرجال بستر حمراء ووجوه أشد احمراراً حول بقرة يدّللونها دلالاً بشرياً لتقدم لهم زبدة الرفاهية من الدنمارك !! ذلك الإعلان ! كنتُ أحس بالفرح حين يصدف أن أشاهده، وأنا أعاني الملل الذي يصيبني من الفضائيات العربية التي يُصر (عماد) على متابعتها حين يزورنا، وابتسم بسعادة، لكنه لا يعلن عن زبدة فحسب، ويبدو

(١) وعي الذات والعالم – دراسات في الرواية العربية ، نبيل سليمان ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، اللاذقية ، ط١ ، ١٩٨٥م : ٤٤ .

لي كأنه يعلن عني .. عن وجودي في هذا البلد . كأنني مكان تلك البقرة، تارة يؤرجحونني وتارة يطوّحون بي في الهواء وتارة يحلبونني . هكذا يُعلن عني ...)) (١).

يظهر النص الفارق الحضاري بين مجتمعين ويبرز طريقة التفكير الشرقي واختلافه عن الغربي، فالغربي هو المتحضّر والشرقي أو بالأحرى العربي هو المتخلف اجتماعياً وثقافياً، وهكذا يتجلى الاغتراب الحضاري الذي يتصل بمحاولة الذات لتشكيل هويتها بالإنتماء لذلك المجتمع بعد أن تخلّى بلدها عن أبنائه وهي تعجب من ذلك، فذلك المجتمع المنحسر في نقطة بعيدة من شمال أوربا يترك جروحاً في نفسية الذات ؛ لأنه يوضح الحقد والكراهية من الدنماركيين وكأنها بقرة يتعاملون معها بالطريقة التي يريدون، فهي مستسلمة لتلك المعاملة (٢). التي تفرض عليها التقيد حتى بالكلام الذي تنطق به اذ يجب أن يكون ب(اللغة الدنماركية) لا غير، التي تكون عائقاً أمام الأصالة التي انبثقت منها تلك الذات، متمثلة بلغتها العربية، وهذا يفرض وجود طابع ثقافي مختلف لدى الشخصية لكن عقليتها بقيت محافظة ولم تتخلّص من جذور بيئتها الأصل (٣).

وفي موضع آخر من الرواية تكشف عن مدى تمسك الفرد بأصالته أمام التحضّر في الغرب تقول :((**ذكر عماد مرة أن العرب عبّاد لألفاظهم تثيرهم الكلمات أكثر من المعاني ذاتها ...**

يومها اعتقدت بان عماد يتفلسف كعادته، لكني أصدّقه اليوم أكثر)) (٤). تتذكر الشخصية ذلك أثناء رؤيتها للفتاة اللبنانية التي كانت تتشاجر مع فتاة دنماركية وتمسكّت في شتمها بلغتها الأصل متمثلة باللهجة اللبنانية وكانت تصف ألفاظها بأنها ضخمة مما يشير إلى اللكنة التي تنفرد بها لهجة عن أخرى (٥).

واستهدف أحد النصوص للروائية عالية ممدوح في روايتها (الأجنبية) الانحياز إلى اللغة الأم التي كانت تنظر إليها على أنها المعجم الذي يتلاءم مع تكوينها الثقافي والاجتماعي، لكنها لم تلبي متطلبات العصر في مجتمع متحضر متمثل بفرنسا، البيئة المختلفة زمانياً ومكانياً عن بيئة الشخصية، لأنَّ المكان هو المنفى وليس فيه من الشبه للغتها الأصلية، والزمان هو في تغيّر وتطور، وهو يفرض تطور اللغة التي تحدث عليها التغيّرات

(١) رواية تحت سماء كوبنهاغن : ٢٣ – ٢٤ .
(٢) المصدر نفسه: ٢٥ .
(٣) المصدر نفسه: ٢٥ – ٢٦ .
(٤) المصدر نفسه: ١٣٨ .
(٥) المصدر نفسه: ١٣٧ .

باختلاف المراحل الزمنية وتغيّرها، لكن اللغة الأصل ظلّت توثق للعلاقة مابين الشخصية ومجتمعها (العراق) الذي تنحدر منه . إلا أن ذلك لم يخلُ من وجود تنازع في ذات الشخصية بين الحياة المعاشة وما تتطلبه من تحضّر في التحصيل اللغوي والثقافي وبين خصوصية لغتها، مما يفرض عليها التعايش مع تلك البيئة ضمن مساحة ضّيقة بحكم تلك الخصوصية التي تفرضها، ولم يكن ذلك مانعاً من جعل لغة البيئة الجديدة هي اللغة السائدة، لكي تتفاعل مع معطيات العصر في تشكيل هويتها الثقافية وتطوير مفاهيمها لكن تبقى سطوة اللغة العربية هي المهيمنة تقول : **((المشكلة هي في سطوة تحكم العربية في الاختراق والتلفّظ، في التجريد والدوران حول ذاتها وحولي، وليس في اللغة الفرنسية أو اللغات الأجنبية))** [١].

فاللغة العربية تمثل (الأصالة) أو تأخذ مفهوم الانتماء لدى الشخصية ممثلة بالشرق، فتكون عائقاً أمام الشخصية في أمكانية الأخذ من لغة الآخر والتي ترمز للغرب، فالشخصية تبحث عن كينونة الذات، وجعلت من الاستناد إلى المعرفة وتعلّم لغة الآخر جانباً حضّارياً، يحقّق جزءاً من التواصل الفكري والاجتماعي في ذلك المكان بالخروج من المحيط التقليدي الذي تفرضه طبيعة مرجعيتها الاجتماعية والثقافية إلى النسق الذي يحقّق كيانها في ذلك المحيط . وقد بدا النص السردي وهو محملٌ بموروثه الثقافي الأصل الذي يكاد أن يناقض الموروث الغربي، لكنه في الوقت نفسه يتجه إليه ليستند ببعض ركائزه بوصفها من متطلبات تحقيق الذات الفردية، باختيارها لما يتوافق مع طبيعة العصر وتشكيل ثقافتها بالطريقة التي تريد، فلم تعد اللغة العربية في ذلك المكان تحقق سطوتها .

تعيش الشخصية المحورية في صراع وسط مجتمع كبير تمثل فيه القلة، فتظهر الحاجة كما يظهر الكثيرون من المغتربين إلى تعلّم اللغة الجديدة (الفرنسية) التي أزاحت لغتها العربية، بل قتلتها من أجل لغة الآخر، تحقيقاً لإرادة الشعوب الأقوى عنصرية وتمييزاً، والتي تعمل على محو وإقصاء اللغة العربية مقابل إعلاء اللغة الأجنبية (الفرنسية) وهذا ما وضع الشخصية في إشكالية، بين المحافظة على لغتها وبين تقبل تعلم تلك اللغة الصعبة وهذا يوّلد إشكالية العلاقة بين الشرق والغرب، والنص الآتي يوضحّ ذلك : **((هل كان المطلوب مني قتل اللغة، لغتي تماماً، والقتل لدى بعض الشعوب ومن أجل سطوتها أو تعاليها هو غاية في ذاته . أنا المشرقية، الآسيوية، والعراقية السورية الآتية من بين البداوة والصحراء، المدينة المرتجلة الواقعة هي أيضاً ما بين الريف المزّيف والريف المتمدن، فالتصدّعات التي عاشتها تلك المدن التي خلفتهّا وتركتها ورائي كانت تشبه فضلات اللغات جميعاً))** [٢].

---

(١) رواية الأجنبية : ٧١ – ٧٢ .

(٢) رواية الاجنبية : ٧٠ .

تشير الشخصية الى أنها خليط من كل تلك الأمكنة، وكل مكان كانت قد مثّلته لغة ولهجة ترسبت في ذات الشخصية فتتساءل كيف لها أن تتجاوز كل ذلك الموروث الشرقي، الآسيوي، العراقي المتمثل بالمدينة والصحراء وتنسحب إلى لغة الآخر المرتبط ((بالأنا ضمن فعالية جدلية لا تقبل الخطأ، ((فهو يدخل في علاقة مع الأنا، استأثرت بأهم الصور الروائية المشكلة لسجل غني يمثل العلاقات المحمولة أو المتواترة التي تبحث عن الالتحام والتوقف أو تصور الخراب الداخلي لهذه الشخصيات)) (١).

ومن خلال اللغة تكشف الكاتبة عن آيديولوجية الدول المحتلة حتى عن طريق اللغة تقول :((**لديكم صيغتان لفعل المستقبل، البسيط والقريب، وأنا أغار منهما فعلاً، ففي بلدي لانملك إلا حرفاً واحداً هو السين، ما أن نضعه في أول الفعل حتى ندخل مرتبة المستقبل، الغد عندكم وافر جداً على العكس عندنا فهو أحياناً لا وجود له (...) منذ عقود والغد في بلدي ملاحق، تماماً هو مجرد حرف ويجوز دائماً سحقه وإيقاف العمل به، منذ الحظر الدولي على العراق وصولاً إلى الاحتلال الأمريكي وإلى يومنا هذا قد عُزِل هذا الفعل عن باقي الشعب ولم يعوّض عنه أيضاً حتى بفعل مضارع مشكوك في أمره . فتم التنكيل بالغد تماماً وقبل الحلم به حدث وصار الترويع عيداً وطنياً**)) (٢).

أكتسبت الرواية دلالة واعية من خلال تعاطيها مع اللغة، لإدراك الوجه الآخر للاحتلال وهيمنته، فمن خلال التركيز على فعل المستقبل، توضّح ما تتمتعّ به البلدان الغربية من استقرار يسمح لهم بإدراك المستقبل أما (نحن) فما يلبث الفرد أن يحلم بذلك المستقبل المستقر حتى تموت تلك الأحلام بأول طريقها، ليكون معاناة الفرد والوطن بصورة متمثلة بإدراك حاضره فقط، ولا يكاد يشعر بوجود مستقبل له . فهي تكشف عن النسق الآيديولوجي المعتمد من قبل الدول المحتلة العراق _ لاسيما اللاجئين الذين تفرض عليهم نبذ لغتهم العربية واعتمادهم المطلق على اللغة الفرنسية لتجعلهم دوماً في دور التابع لها . وهكذا أفادت الكاتبة من اللغة لتعطي صورة لثنائية الشرق/ الغرب، ذات المضامين التاريخية .

ونعود لرواية (تحت سماء كوبنهاغن)، فنجد أن الكاتبة ترصد الفوارق الطبقية بين مجتمع وآخر على أساس، اللون، والاسم، واللغة، و يتجلّى هذا الفارق في الرواية بصورة واضحة بين المجتمع الشرقي (العراقي) متمثلاً بشخصية (هدى) و المجتمع الأوربي الغربي (الدنماركي) متمثلاً بالفتى (كلاوس) وهذا الفارق بينهما كان على أساس اللون تقول وهي تصف اللعب مع مجموعة من الأطفال من بينهم (كلاوس) :

---

(١) جماليات التشكيل الروائي – دراسة في الملحمة الروائية (مدارات الشرق) لنبيل سليمان ، محمد صابر عبيد ، وسوسن البياتي ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، ط١ ، ٢٠١٢م : ٧٣ .
(٢) رواية الاجنبية : ٧٦ .

((كنا نلعب جميعاً . وبدأنا بتقسيم أنفسنا إثر اقتراح للعبة تتكون من فرق (...) أقفز أنا إلى كلاوس أزيح الناعم الأسود عن عينيّ وأمسك يده بحركة عفوية ثم أقول بصوت عال ليسمع الجميع :

- أنا وكلاوس معاً .

فيسحب كلاوس يده بحركة عنيفة :

-جدتي تقول عندما تكبر لا تتزوج من السودوات .

-لكننا لن نتزوج ... وأنا لست سوداء .

(...) - أنتِ بشعر أسود ... إذن أنتِ سوداء .

وينطلق من أمامي ليختار طفلة شعرها لم يكن بالتأكيد يماثل سواد شعري في لونه (...) لم أعتد من نفسي ذاكرة قوية، تلك التي تسترجع بسهولة تفاصيل صغيرة، لكن أن تكون التفصيلة الصغيرة هي إقصائي فذلك مالم أتمكن من نسيانه بسهولة)) [١]. يرتبط النص بدلالة تحمل معنى سلبياً يشير إلى ذلك العالم الذي يصنّف البشر على أساس اللون فنعت (هدى) بالسوداء، لأنها شرقية تحمل لون الشعر الأسود، يشير إلى الكراهية التي يحملها المجتمع الدنماركي تجاه من تبدو بشرتهم بذلك اللون، فالدنماركيون أصحاب الوجوه المصبغة باللون الأحمر كما تشير الرواية إلى ذلك في موضع منها (وجوه أشد احمراراً) [٢]. والأنوف المرتفعة كما تصف الشخصية الرئيسة (كلاوس) : **((أنفه الصغير المرفوع مثل أنوف الدنماركيون ...))** [٣]. فهاتان ميزتان يتميز بهما الشعب الدنماركي، فالأنف المرتفع واللون الأحمر، يحملان دلالة التعصب وحب الصراع والتمييز العنصري، فالنص يختصر هذه الدلالات والأفكار في عدد من المفردات الحاملة للمعنى الرمزي الذي أرادت الكاتبة إيصالهُ للمتلقي ومنها هذه المفردات (أحمر .. الأنف المرفوع .. سوداء .. سوداوات)، وهذا يعني التمايز بين المجتمعين ورفض الآخر الدنماركي للفرد المقصي في ذلك المكان، وقد وظفّت الكاتبة ذلك عن قصد لتكشف عن التباين والاختلاف الذي يراه الآخر من خلال نظرته لتلك الفتاة والتي تمثل مجتمعاً بأكمله، فالكاتبة أطلقت لهموم الذات المفردة لتعبر عن المجموع الذي يواجه تلك الحرب النفسية التي تميّز الإنسان على أساس سمة معينة، فالإدراك الذي يحمله طفل صغير بعمر (كلاوس) جاء نتيجة لعقليات مجتمعه وقد تمثّلت في الرواية بشخصية الجدة، والتي تعد نظرة (كلاوس) جزءاً لا ينفصل عن نظرتها ووجهة نظر مجتمعها

(١) رواية تحت سماء كوبنهاغن : ٢٧ - ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه: ٢٣ .

(٣) المصدر نفسه:ص. ن .

الحاملة هي لأعرافه وتقاليده، والتي تهدف إلى عزل تلك الفئة من مجتمعها عن الناس، وهذا التمييز كان قد خلّف شعوراً نفسياً تتألم له الذات يومياً وهي تعيش في ذلك المنفى القاصي من أوربا لجهة الشمال، وهذا الشعور يبقى مسيطراً على الذات حتى مرور سنوات تقول : **((تذكرت كلاوس ذلك الصغير الذي رفض اللعب معي لأنني كما نعتني حينها _ سوداء ... كم هو سهل أن يُطلق الدنماركيون مثل هذا التعبير على الأجانب، حتى أولئك الذين يماثلونهم بياضاً))** [١]. إنَّ بقاء ذكرى (كلاوس) في مخيلة (هدى) ماهو إلا نتيجة للشعور المقيت الملازم لها تجاهه، لأنه ترك أثراً في نفسها وكلما شاهدت موقفاً مشابهاً له استعادته ذاكرتها لتجعل من تلك السمة سمة عامة لعموم الدنماركيين وما (كلاوس) إلا حصيلة للنشأة الدنماركية التي نشؤوا عليها منذ الصغر، فالدنماركيون ينعتون أي شخص بصفات تفرّقه عنهم حتى وإن كان يماثلهم في البياض وهذا دليل على العنصرية المزروعة في نفوسهم .

انعكست تلك العنصرية على شخصية (هدى) واستمرت تراودها ففي إحدى المرات التي كانت تخضع فيها لامتحان في المدرسة فكرّت لو أنها ترسّب نفسها في الامتحان الذي يختبرها به معلمون دنماركيون، فقررت لو سألها أحدهم لن تجيب تمرّداً عليهم وعناداً لهم، لأنها تكرههم وعندما تفشل سيتعاطف معها الجميع ويظنون أنها ضحية العنصرية الأوربية تقول :

((جلستُ أمام الرجلين وأنا في حالة عدم استعداد لما سيأتي .. طرح علي مدّرسي السؤال، فلم أنظر إليه ونقلتُ بصري إلى المدرس المختبر، فهذا الغريب سيحدد شكلاً من مصيري بعد دقائق قليلة، واضعاً كفه تحت ذقنه يصب نظره على أوراق أمامه من تحت نظارته .. دنماركي الملامح بشدة، هادئاً مطمئناً بشدة، كرهته لأجل كل ذلك، ورددت في قلبي وأنا أمعن النظر فيه : ((سأرسب .. نكاية في شاربك الأصفر)) سيكون الأمر سهلاً . ما أسهل أن تسقط في أي شيء، وما أسهل أن تأتي بأعذار مناسبة لذلك . سأخرج من باب غرفة الامتحانات ثائرة أرغي وأزيد، ثم أتهم المدرسين لاسيما الغريب منهما بالعنصرية سأتهمهما بأنهما لم يطيقا منظري وأنا ألف رأسي بهذه القطعة من القماش فأسقطاني)) [٢].

إن العنصرية التي كانت تُعامل بها (هدى) من قبل الدنماركي هاهي آثارها تنتقل إليها لترى في كل شخص منهم وإن لم يحمل تلك السمة، فالفارق الذي أحست به و هي صغيرة نما في ذاتها شيئاً فشيئاً، حتى أصبحت تحمل الكره تجاههم، فكانت النتيجة لعنصريتهم هو الكره المتبادل، والأمر لا يقتصر على التمايز الذي يضعه الغربي تجاه الشرقي، بل إن الشرقي أيضاً يضع اختلافات عديدة بينه وبين الشرقي مثله، ومن ذلك ما

(١) رواية تحت سماء كوبنهاغن: ٢٣.

(٢) المصدر نفسه: ٢١٣ .

تستذكره (هدى) لأحد البيوت الذي تسكنه العائلة الإيرانية وكان لهم إبنة تدعى (فاطمة) قامت ذات مرة بسحب (هدى) إلى بيتهم، حالما رآها (أبو فاطمة) أمرها أن تذهب إلى بيتهم، فشعرت بالإهانة والحزن فسقطت دموعها وأثناء خروجها من المنزل سمعت الأب يحاسب أبنته محذراً إياها من الوقوف مع الدنماركيات أو مع (هدى) قال :

((كيف تقفين مع أولئك البنات ؟

- كنت أقف مع هدى، لم أقف معهن .

ردت أبنته الغبية .

- أني أقصد هدى أيضاً ... من الآن فصاعداً لا أسمح لك باللعب معها .

- لكنها عراقية .

- إنها شرّ من الدنماركيات إذا كان هؤلاء أهلها، أب سكير وأخت ساقطة، وأخ عابث أقطع ذراعي إن لم يكن بعثياً)) [١].

أرادت الكاتبة الإفصاح عن الاختلاف الاجتماعي حتى بين الذين ينتمون لدين وعرف واحد، أي بين الشرقي والشرقي الآخر تبعاً للموروث الثقافي والتقاليد التي تمثل أنساقاً مختلفة تبعاً لتشكّلات المجتمع الذي تمثله .

وفي رواية (بلقيس حسن) بعنوان (هروب الموناليزا) نرى الثيمة ذاتها تحققّ من خلال الصراع الطبقي مابين (الرجل والمرأة) المنتميان لبلد واحد، وتمثّلت بالفارق الذي يضعونه فيما بينهم وتعكس لطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة في مجتمع الغربة، وتكشف عن خصوصية المجتمع الأصل الذي ينتميان إليه، أو المجتمع المتبّني لهما، فالروائية تعبر من خلال علاقة الرجل والمرأة هي علاقة المركز بالهامش، فالرجل هو المركز، وهي ذات النظرة والفارق اللذان يضعهما الغربي تجاه الشرقي (العربي) أو كما تطلق عليه الروائية (العالم الثالث) فالنقص الذي كان يشعر به زوج (سومر) أمام الآخر (العالم المتحضرّ) وكل شخص في ذلك العالم ينظر إليه بدونية راح يفرغه ويعوضه في (سومر) فقد كان متزوجاً من امرأة غربية غير زوجته الثانية (سومر) وكانت الغربية لا تحمل أياً من مفاهيم ثقافته وهي مختلفة عنه تماماً وكانت تنظر إليه بشكل مختلف عنها، فاستقرت تلك النظرة فيه وتحوّلت إلى شعور بالدونية بقي مسيطراً على ذاته، واحتلت جزءاً من كينونته، وذهب يحوّل ذلك الضغط إلى (سومر) التي تحملّت وزر الصراعات البشرية، التي ترسخت منذ أزمان بعيدة في عقول الناس فـ(سومر) وذلك الرجل كلاهما ينتمي لحضارة واحدة ولواقعٍ شديد التخلّف والغربة والسحر، فتلك الفوارق التي مارسها على (سومر) دفعتها إلى الإقرار بتلك الدونية في المستوى، الغريبة

(١) رواية تحت سماء كوبنهاغن : ٧٣ .

من واقعها الشرقي وانتمائها لبلدها الأصل، فأصبحت من الصفات العامة التي تميز دول العالم الثالث، فالقوة والفاعلية التي يفرضها (المتحضرّ) الغربي على الشرقي المتخلف هي القوة والفاعلية ذاتها التي مارسها الرجل على المرأة .

فالنص النسائي بقدر ما يتناول العلاقة مابين الرجل والمرأة بقدر ما يعني وصف المركزية الغربية على الشرقي العربي العراقي الضاربة جذورها في التاريخ، ويأخذ تراوحاً مابين القبول والرفض . كانت (سومر) تعذر زوجها في بعض الأحيان وترى بأنها قد ظلمته وتبرر له مواقفه، مثلمنا بررت للآخر الغربي تصرفاته تجاه الشرق، الآخر الذي يدخلون مدارسه ومعاهده ويسنكون مدنه تقول :

((كنت أحسبه لا يفرق بين أصله وأصلي (...) هنا في أوربا جميعنا غرباء، دخلاء معطوف علينا كمهزومين . جميعنا من العالم المدعو بالعالم الثالث، العالم الذي نتباهى بحضارته القديمة وهو محض ماضٍ كل ما تبقى لنا، العالم الذي لا يكاد يلحق بالتطور والمليء بالأديان، بالسحر، والتقاليد والخرافات جميعاً من عالم الظلم والصراعات التي لفظتنا، فلا فضل لأحد منا على أخر ونحن نسكن في أوطان الآخرين، الآخرون الشقر الذين لا يشبهوننا، والذين سكنا مدنهم لنبقى فيها ربما حتى ما لا نهاية (...) هل أنت تكره العرب يا صديقي ؟ لماذا قال لي أنتم العرب ؟ لماذا أختصر بي أنا وحدي صراعات البشرية جميعها مع العرب؟)) [١].

من خلال سرد (سومر) لحياتها قدّمت الكاتبة حقيقة الواقع النسائي ضمن قالب روائي يجعل المتلقي يدرك مابين السطور من طرح تريد من خلاله التعبير عن الذات الأنثوية التي اقترنت في النص بقضية تاريخية، بالعالم المتخلف في حين أقترن الرجل بالعالم المتحضر، وبذلك رصدت الكاتبة أبعاداً متعددة منها تاريخية ومنها اجتماعية ومنها طبقية، وهذه الأبعاد تمثل مسارات يُمارس فيها إعلاء الذات على الآخر (الذكورة على الأنوثة)، و(الغرب على الشرق) . إنّ النص السردي ينحاز إلى الجانب الأنثوي رداً على مناصرة المجتمع للجانب الذكوري، وقد استطاعت الأنثى أن تكشف بذكائها عن عقدة ذلك الرجل ومن ثم تعطيه الحق في تأسيس ذلك الفارق تقول : **((ولكن ماذنبه هو الذي عاش ممنوعاً من القراءة بلغة الأم، فهو من قومية لا تستعمل لغتها في المدارس، قومية تجبر على استعمال اللغة العربية ولا خيار لهم سواها ؟ باسم الدين أو القومية أو باسم القوة أو باسم أي سبب، آه ياحبيبي كم أنا أحبك وكم أنا أظلمك أحياناً))** [٢].

---

(١) رواية هروب الموناليزا : ١٠٠ .

(٢) المصدر نفسه : ١٠١ .

وبعد ذلك تجد المبرر لكل ذلك تقول الراوية موناليزا : ((**ربما من هنا جاءت عقدته أمام الآخر المتحضر حيث يراه دائماً أحسن منه وإن كان هذا الآخر لا يستحق أدنى الاهتمام (...) أعتبره هو الضحية في هذا العالم المتصارع الأطراف**)) (١). فالنص يقدم الأنثى التي تعاني الفوارق الاجتماعية والطبقية، وهي محاصرة بظروف الغربة، وظروف التعالي الذكوري .

ويُعرض للقضية نفسـها في رواية (دوّامة الرحيل) التي تجـد الفارق حاضراً بين الرجل والمرأة بفعل طغاة الشعوب من الحكام متمثلاً في النص الروائي بأمريكا، مما يخلق شعوراً في نفس الشخصية الروائية، ولكل فرد ينتمي لذلك الشعب الذي يمثّله الحاكم المستبد المجرم صانع الحروب، تكشف الرواية عن الآثار والأبعاد التي خلفتها الحرب الأمريكية على العراق عام ٢٠٠٣م، ومدى تأثيرها على الشخصية الروائية (إباء) من سجن والدها ومن ثم قتله في سجن (أبي غريب) وفصل والدتها عن العمل والاستيلاء على عيادتها من قبل مجموعة من المتمردين ومن ثم مقتل أخيها (بارق) فكل هذه الأحداث تركت آثاراً في نفس (أباء) وخلقت في ذاكرتها فكرة عامة عن الحياة وطبيعة تناقضاتها، وهذا انعكس على علاقتها بـ (لينك) الذي التقته في الولايات المتحدة بعد أن طالبت باللجوء لأي بقعة في العالم باستثناء الولايات المتحدة، لكن القدر أبى إلا أن تكون هي، فذلك الشاب الأمريكي كانت ترى فيه تمثيلاً لحروب بلاده على العراق وهو رمز للدمار والقتل، فظلت (إباء) تنازع مابين حبها لـ (لينك) وما بين بلادها ومقتل أبيها وأخيها وهذا ما سببتّه بلاد (لينك) والنص الآتي يوضح ذلك :

((**شعورها أن في حبها لهذا الرجل خيانة لذكرى أبيها وأخيها وكل من تسبّب احتلال أمريكا بقتلهم وتشريدهم، وهو ما يدفعها اليوم للرحيل مجدداً لكي تبتعد عن الرجل الوحيد الذي أثار في روحها وجسدها مشاعر لم تعرفها من قبل، فهل ذنبها أنه من شعب أجرم حكامه بحق شعبها ؟ وحتى كونه كندي الجنسية لا يغير من الواقع شيئاً، فهو أمريكي، شاءت أم أبت**)) (٢).

يحمل النص ربطاً مزدوجاً مابين (لينك) وأمريكا، وهذا الربط التاريخي هو ما يدفع الأنثى لرفض الآخر الذي يحمل دلالة مجتمعه وحكّامه الجائرين، فتحوّلت تلك المبررات إلى أسباب يُدان بها (لينك) تقول :

---

(١) رواية هروب الموناليزا: ١٠١ .

(٢) رواية دوامة الرحيل : ٣٠١ – ٣٠٢ .

((تخيّلتُ لينك إيستوود واحداً ممن داهموا دارهم في بغداد، كانوا جميعاً ملثمين، يخفون وجوههم خشية التعرف عليهم . أو واحد ممن شارك في تعذيب والدها وغيره من العراقيين، أو قتلهم بذريعة حماية أرواح الأمريكيين، قتلوا مئات الآلاف من العراقيين بذريعة حماية أرواح جنودهم، كأن ليس للعراقي روح مثلهم، فالعراقي بنظرهم أقل مرتبة من البشر ويستحق القتل، لأنه يدافع عن أرضه، أو ربما كان من بين من أغتصب العراقيات، وقتلهن وقتل أسرهن، لم لا ؟ أليس أمريكياً ؟)) (١).

إن هذا الفارق والقيد الذي وضعته الذات الأنثوية لنفسها أستُمِد من أثار الحروب، والدمار والضياع الاجتماعي الذي خلفّته أمريكا، فالنص يضع المتلقي أمام صور مُتعددة ألقى بها الاحتلال على العراق، ومارست القهر على ذلك الشعب المهمّش، لترى (إباء) مجموع تلك الأحداث في شخص (لينك)، فوعي الأنثى بهموم مجتمعها هو الذي قاد (إباء) إلى كره تلك البلاد وشعبها، التي يحتفي حكامهابما بلغوه في تسلطهم حد العبث بحياة العراقيين من قتل وتعذيب في السجون، والتهجير إلى البلدان الأخرى، وأمام حقد (إباء) على (لينك) وشعبه، كان (لينك) يميل إلى التعقّل ومناقشة الآراء من أجل خلق حلقة وصل بينه وبين (إباء) على الرغم من اختلاف المشتركات بينهما فيما يتعلق بالفارق الطبقي والاجتماعي والعقائدي، لكن (إباء) كانت تسعى وبكل ما يمكنها للانفلات من تلك الآراء التي تجرها للتواصل مع ذلك الواقع المفروض عليها بكل توجهاته، الذي عدم إمكانية التواصل في النص بين الشرق والغرب، فهو يفصح عن حجم العقدة التي شكلّها الآخر، التي يعني استحالة إقامة علاقة ودية بين (أمريكا والعراق)، لكن الحب ينتصر في النهاية فالذات بحاجة للآخر كي تكتمل .

وفي رواية (نساء) نرى الفارق مابين اليهود ومن سواهم من الأفراد الآخرين على أساس التحضّر الذي يملكه اليهودي تقول الراوية : **((اليهود كشعب لا مكان فيه للحروب والقتال (جيش متواضع خاسر) وإنما هو شعب بناء وخبرات حضارية متنوعة . وتبرز فيه سمة السخرية والنظرة الدونية إلى كل ماعدا اليهود بشكل واضح للعيان))** (٢).

يمثل النص واحدة من إدعاءات الصهيونية العنصرية التي تسعى عن طريق هذه النظرة أن ترسّخ قواعد للعبتها، بالاستيلاء على ما تريد، ومن تلك الادعاءات، هو حقهم في احتلال العراق واستعادة مدينة بابل بالاستناد لمسألة الخلق لأدم تقول :

((وحتى في مسألة خلق أدم، وجد المؤلف أن من حقّه أن يدّعي أن رأس أدم جبل من طين إسرائيل بينما جذعه جبل من طين بابل)) (٣). وهذا يمثل ما عثر عليه في

---

(١) رواية دوامة الرحيل: ١٧٢ .

(٢) رواية نساء : ٢٥٦ .

(٣) المصدر نفسه: ٢٥٧ .

الكراسات التي كانت محتفظة بها (موجة) في البيت الذي يعود لليهود، ويكشف هذا النص عن السياسة الصهيونية في محاولة الاستيلاء على العراق، وهو ما كان مستهدف بعد احتلالها لفلسطين، فالرواية توجه خطابها للمتلقي باستذكار مخطّطات اليهود في تلك المراحل التاريخية، ففي واحدة من الرسائل التي كان يبعث بها (يزن) من المانيا لموجة، أدعىّ فيها المؤلف بحق اليهود باحتلال العراق تقول الراوية (الأنا) :

((ففي واحدة من الرسائل التي جاء بها (يزن) بعد ستة أشهر من اتصاله (بموجة) : أشار كاتبها إلى حق اليهود في استرجاع بابل، كما وردت إشارة واضحة لا لبس فيها : أن بُناة البرج هم اليهود وأن سر عظمته وذيوع صيته يرتبط بهذه الحقيقة وحدها))[١].

لقد وعى النص قضية تاريخية دلّت على وعي إبداعي ترابطت فيه أنساق مختلفة تمثل وعي الكاتبة لذلك الزمن، وأخذت على عاتقها ((مهمة تحليل التاريخ وفحص ومزج القوى التاريخية المسؤولة عن الحاضر)) [٢].

نستطيع القول بأن ما أنتجته الأعمال الروائية كان خاضعاً للبعد التاريخي المتمثل بآيديولوجيا الحروب والثورات، والتي تستهدف إحداث تغيير في الواقع، وإنتاج شخصيات فاعلة ولها دور مؤثر في رسم المسار التاريخي، وهذه الشخصيات تتباين في مواقفها واختلفت في أرائها، وهذا التغيير التاريخي عن طريق الحروب والثورات يفرض تغييراً ينشأ في المجتمع من خلال المستويات الطبقية، التي يقودها التغيير إلى خوض صراعات طبقية، تؤدي إلى خلق فوضى في المجتمع، وزعزعة نظام الفرد نفسه بعلاقته مع غيره وهذا ما كان، وما زال مرتبطاً بالوضع السياسي .

(١) رواية نساء : ٤٢٦ .

(٢) الرواية التاريخية بين الواقع والتخييل ، فاطمة الياس ، مجلة علامات في النقد الأدبي ، النادي الثقافي بجدة ، ج ٦٨ ، مج ١٧، صفر ،١٤٣٠، فبراير ، ٢٠٠٩ م :٤٢٦ .

الخاتمة

إن تأزم الأوضاع بمختلف أسبابها وأشكالها أحدثت نقلة في مدى ارتباط الشخصيات وتمسكها بهويتها، مما خلق نفوراً واضحاً تجاه هويتهم، في مقابل استلهام قيم الآخر/ الغربي وطباعه وسلوكه، واسمه أيضاً، وقد تعرّضت الأعمال الروائية لصورة تفكك الهوية، حيث احتلت في بعض منها حيزاً رئيساً، ومنها ما كانت بصورة موجزة، لكنها لم تفقد ذلك المؤشر الوطني، وقد اختلفت رؤية النصوص لتلك الشخصيات وأفعالها وتطلعاتها الحياتية بحسب رؤية الكاتبة ومحاولتها الانطلاق من تلك المسألة ذات التأثير في العملية السردية، والتي ارتبطت بالجانب السياسي والاجتماعي، فأصبح التأثر بالآخر والانحياز لهويته ذا تأثيراً واضحاً ومؤثراً في محاولة اللجوء إلى ما يحقق استقرار الذات .

ثبت المصادر

- تحت سماء كوبنهاغن، حوراء النداّوي، دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠١٠م .
- حديقة حياة، لطفية الدليمي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ، ط١، ٢٠٠٤م.
- الحفيدة الأمريكية، إنعام كجه جي، دار الجديد، بيروت، ط٢، ٢٠٠٩م.
- الاجنبية : عالية ممدوح، دار الأدب للنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٣م .
- دوامة الرحيل، ناصرة السعدون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٤
- طشاري، إنعام كجه جي، دار الجديد، بيروت، ٢٠١٣م .
- سيدات زحل، لطفية الدليمي، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط٢،٢٠١٣م . •
- نصف جسد، أزهار رحيم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط٢، ٢٠١٤م .
- نساء، إلهام عبد الكريم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠١٤م.
- هروب المونالـيـزا، بـوح قيثـارة، بلقيس حميـد حســن، دار ميزوبوتاميـا للطباعـة والنشـر والتوزيع، بغداد، ط٢، ٢٠١٤م .
- الروايـة التاريخيـة بـين الواقـع والتخييـل، فاطمـة الياس، مجلـة علامـات فـي النقد الأدبـي، النادي الثقافي بجدة، ج ٦٨، مج ١٧، صفر،١٤٣٠، فبراير، ٢٠٠٩ م :٤٢٦ .
- جماليات التشكيل الروائي – دراسة في الملحمة الروائية (مدارات الشرق) لنبيل سليمان، محمد صابر عبيد، وسوسن البياتي، عالم الكتب الحديث، إربد، ط١، ٢٠١٢م : ٧٣ .
- مـدخل إلـى نظريـة الأنسـاق، بـيكلاس لومـان، ترجمـة : يوسـف فهمـي حجـازي، مراجعـة وتدقيق : رامز ملا، منشورات الجمل، بغداد، ط١، ٢٠١٠م .
- نظرية التأويل – الخطاب وفائض المعنى، بول ريكور، ترجمة : سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٦م .
- الإنسـان المغتـرب عنـد إيريـك فـروم، حسـن حمـاد، مكتبـة دار الكلمـة، القـاهرة، د . ط، ٢٠٠٥م .
- وعـي الـذات والعـالم – دراسـات فـي الروايـة العربيـة، نبيـل سـليمان، دار الحـوار للنشـر والتوزيع، اللاذقية، ط١، ١٩٨٥م .
- سياسـات الهويـة ومفهـوم الهجنـة مـن موقـع : http://almadapar net/ar News/50038.